

جمهورية مصر العربية
وزارة الأوقاف
المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية
لجنة إحياء التراث الإسلامي

إنباء الغدير بإنباء العمير

لشيخ الإسلام
المحافظ ابن حجر العسقلاني
٧٧٣ - ٨٥٢ هـ

البيروت الأولى

تحقيق
الدكتور حسن حبشي

القاهرة

١٤١٨ هـ - ١٩٩٨ م

بسم الله الرحمن الرحيم

تصدير

بقلم الأستاذ محمد أبو الفضل إبراهيم رئيس لجنة إحياء التراث

كانت الفترة التي عاش فيها ابن حجر العسقلاني في أخريات القرن الثامن والنصف الأول من القرن التاسع ، من أحفل الفترات التاريخية بالعلماء ، وأزخرها بالمدارس ودور الكتب ، وأملئها بحلقات الدروس ومجالس الفتيا والمناظرات ؛ كما كانت هذه الفترة أيضا جزءا من العصر الذي يطلق عليه مؤرخو الآداب العربية العصر المملوكي ؛ وهو العصر الذي غنيت فيه مصر والشام بصنوف المعارف والفنون والآداب ؛ بعد أن تقوّض صرح الخلافة العباسية ببغداد ، وهجرها العلماء والشعراء ؛ نتيجة لغزوة التتار المعروفة في التاريخ ، وهرعوا إلى دمشق وحلب والقاهرة والإسكندرية وقوص ؛ وأخلدوا إلى حياة علمية خصيبة في ظل الملوك والأمراء في هذه البلاد .

ويعدّ الإمام ابن حجر العسقلاني من أبرز العلماء الذين عاشوا في هذه الحقبة ؛ كان كوكبهم الساطع ، وشيخهم الأكبر ، وإمامهم غير مدافع ؛ بما تهيأ له من الذكاء والفطنة والزكّانة ، وما مكّنت له الحياة في القاهرة - وهي حاضرة العلم وقبة الإسلام إذ ذاك - وما أفاده من رحلاته في الحجاز واليمن والشام ، وما شغل به من رفيع المناصب وسنّ المراتب ؛ حتى

استأهلت حياته المباركة أن يضع فيها تلميذه العالم المؤرخ شمس الدين السخاوى كتاباً حفيلاً ؛ تحدث فيه عن مراحل حياته ، وأطوار عمره وأحداث دهره .

كما يعد كتابه « إنباء الغمر بانباء العمر » - وهو الذى تعنى لجنة إحياء التراث بنشره - صورة صادقة لذلك العصر ، ومرآة صافية انعكست عليها أحداثه وسير رجاله ؛ جمع فيه من الحوادث وأخبار الأعيان من الرجال ، ما وقع بين سنتي ٧٧٣ و ٨٥٠ هـ ، وهى السنة التى توفى بعدها بعامين ؛ اعتمد فيها - كما ذكره فى صدر الكتاب - على تاريخ ناصر الدين بن الفرات وصارم الدين بن دقماق والتقى القاسى ونظرائهم ، وعلى العلماء الذين لقيهم فى أسفاره ، وخالطهم فى حلّه وترحاله ، ثم على ما عرفه من مزاوله المناصب التى تولّاها ، وأضاف إلى ذلك كما ذكره الأستاذ الدكتور المحقق ما أفاده من « معرفته الشخصية لبعض السلاطين ؛ معرفة ترقى إلى حد الصداقة والمجالسة ، واستشارتهم إياه فيما أبهم عليهم وأغلق من أمور السياسة ذات الصلة بالشرع ؛ حتى لقد أخذ بعض الأخبار عنهم ؛ ناسباً كل خبر إلى مصدره ، وبذلك توفرت له المادة التاريخية التى هيأتها له دراسته العميقة للأحداث الشريفة ورجالاتها » .

وقد كان هذا الكتاب منذ صدر عن مؤلفه من المراجع الهامة فى بابهِ ، يصبو الباحثون إلى مطالعته ، وتتعلق الآمال بنشره ، ولا يُعرَف عنه إلا شذرات يسيرة مما يَنقل عنه من جاء بعده ، كالسيوطىّ والسخاوىّ وابن إياس ؛ كما ظلت مخطوطاته محفوظة فى دور الكتب ؛ لا يعرفها إلا القليل من الخبراء بنوادى الكتب ونفائس المخطوطات ؛ إلى أن انتدب

لتحقيقه العالم للدكتور حسن حبشى أستاذ التاريخ الإسلامى فى العصور
الوسطى بكلية الآداب بجامعة عين شمس ، وهو الموضوع الذى يرتبط.
ارتباطا وثيقا بمادة الكتاب ؛ وقد بذل فى تحقيقه أوسع الجهد وغاية المرغوب ؛
فكان بهذا العمل النافع وبالكتب التى صنفها وحققها ، والبحوث والمحاضرات
التي أذاعها ، من الرواد الذين أدوا إلى التاريخ الإسلامى أجل الخدمات .
ويعتبر هذا الجزء أحد أجزاء الكتاب الثلاثة : ونرجو بعون الله
وتوفيقه - حين يتم نشره - أن يكون من أعظم المراجع شمولاً ، وأكثرها
استيعاباً ، لعصر ابن حجر ؛ أزهى العصور الإسلامية فى التأليف .
والله الموفق للصواب

أبو الفضل إبراهيم

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

يتبوأ ابن حجر العسقلاني - في جدارة واستحقاق - مركزَ الصدارة بين المحدثين والحفاظ في العالم الإسلامي منذ بداية القرن التاسع للهجرة ، وهو مركز لم يستطع احتلاله أحدٌ ممن عاصروه وزاحموه - وهم كثر - ، ولا يَمُنُّ جاءوا بعده وشغلوا أنفسهم بهذا الضرب أو ذاك من تلك الدراسة ، فانهقد الإجماع على أنه حامل رأيهم والمقدم فيهم والمهتدى برأيه وقوله حين تضطرب المسالك وتتشعب ويُخشى الزلل ، وقد يسر له ذلك ميل فطري للدراسة الفقه والحديث وولعٌ بمعرفة أسانيده ، إلى جانب ما انطبع عليه من قدرة على تبيان صفات رجاله ، وذكاء غريزي جعل منه محدثاً لم يظهر أرشح منه فؤاداً ، وحافظاً يبارى فهمه سمعه ، فصار بذلك الحجة وعليه المعول فيما اختلف فيه المختلفون مما يتعلق بهذا الموضوع .

وابن حجر متعدد الجوانب من حيث الثقافة ، فقد أسهم في الحديث والفقه والأدب والتاريخ ، وطُبِعَتْ مؤلفاته - صغيرها وكبيرها - ومجالس إملائه - كما يشهد تلاميذه وغير تلاميذه ممن عاصروه في مصر والشام وغيرهما من بلاد العالم الإسلامي - بطابع الدقة وتحكيم العقل والمنطق ، فهو لا يورد خبراً إلا بعد أن يكون قد انتظمت له عنده أسباب الدراسة والبحث والتمحيص والتحقيق والمقارنة والتثبت والإيضاح ، وإلا بعد أن يكون قد طَبَّقَ عليه قواعد الجرح والتعديل ، يعرض لذلك كله ناقداً إيَّاه نقد الصيرفي الحاذق يعرف الصحيح من الغث ، لا يخدعه بهرج ولا يغره طلاء .

* * *

وهو أحمد بن علي بن محمد بن علي بن محمود بن أحمد بن حجر الشافعي ، العسقلاني الأصل ، المصري المولد ، القاهري الدار والنشأة ، وُلِدَ على أرجح الأقوال في الثالث^(١) والعشرين من شعبان سنة ٧٧٣ هـ (أول مارس ١٣٧٢ م) ، واستقر أجداده في مصر التي انتقلوا إليها من عسقلان

(١) لم ينص ابن حجر على هذا اليوم في ترجمته التي كتبها لنفسه في كتابه : رفع الاصر عن قضاة مصر (ط . القاهرة) ص ٨٥ - ٨٨ ولكن الاجماع منعقد عايه عند من ترجموا له وعرضوا لمولده .

بأرض فلسطين ، على أنه ليس من المعروف على وجه التأكيد أكانت أسرته قديمة الاستقرار بعسقلان ، وإلى أي زمن أو جيل يرجع ذلك القِدَم أم أنها طارئة عليها ، فليس ثمت في تراجم المتقدمين إشارة إلى ما يهدى الباحث ويشفى غلته ويكشف اللثام عن حقيقة هذه المسألة ، كما أنه لا يُعرف التاريخ الذى نزلت فيه هذه الأسرة إلى مصر أو السبب الذى من أجله غادرت عسقلان ، فليس في التراجم المعروفة عن ابن حجر ولا في ترجمته الرائعة الوافية التى كتبها تلميذه ومريده السخاوى ، ولا في التراجم القصار المبعثرة في ثنايا المعاجم التى ورد فيها ذكرُ لأجداده ورجالات أسرته ما يرشد الباحث إلى القول الفيصل في هاتين المسألتين .

على أننا إذا تأملنا سلسلة نسبه ، ولاسيما كما يروها هو في كتابه «إنباء الغمر بأبناء العمر» ، أو كما يوردها السيوطى في «نظم العقيان» ، لوجدنا أنها تقف عند الجد السابع له ، على اختلاف بين المصدرين في إسمى جديّه السادس والسابع من حيث التقديم والتأخير ، فهذان الجدّان عند صاحبنا هما «أحمد بن حجر» ، وعند السيوطى «حجر بن أحمد» ، وقد لايعنينا كثيراً في هذه الأسطر أيهما السابق للآخر بقدر مايعنينا وقوف كل من الكاتبين عند الجد السابع فقط ، غير محاول أحدهما تجاوزه ولو إلى نسب قبلى ، فإذا جاز لنا أن نجعل لكل حلقة مدة ربع قرن من الزمان ، وضممنا إلى هؤلاء الجدود السبعة جيل أبيه نور الدين على صارت لدينا ثمانية أجيال تستغرق من التاريخ قرابة قرنين ، وإذا تذكرنا أن مولد صاحب الإنباء كان في سنة ٧٧٣ وأنقصنا هذين القرنين من عام مولده تبين لنا أن جدّه الأكبر - وهو الأخير في سلسلة نسب أجداده - عاش في عسقلان في ختام الثلث الأخير من القرن السادس للهجرة ، فما أهمية هذه الفترة مما تصحّ أن تكون ذات اتصال - عن قرب أو بعد - بأسرة ابن حجر . ؟

للإجابة على هذا التساؤل نقول إنه في هذا الوقت بالذات الذى عاش فيه جدّ ابن حجر الأكبر ، وفي عام ٥٨٧ هـ بالتحديد اضطر صلاح الدين الأيوبي - تحت الخوف من غزو الصليبيين لعسقلان وعدم قدرة حاميتها المسلمة على الدفاع عنها ضدّهم - إلى تخریبها ، مما حمل الكثيرين من أهلها على الانتقال إلى مصر والاستيطان فيها^(١) .

(١) راجع ابن شداد : النوادر السلطانية (ط . القاهرة ١٣٤٦) ص ١٦٥ - ١٦٦ ، ٢٢٣ ، ٢٣٧ ، وخطط المقرئى ، ج ٢ ، ص ٢٣٣ ، والسلوك للمقرئى (ط . زيادة) ج ١ ص ١٠٦ .

وليس بمستبعد أن يكون جدّه السابع قد هاجر بأسرته مع مَنْ هاجر إلى البلد الذي حمل لواء الدفاع عن الإسلام والمسلمين وحمل الشرق العربي من خطر الجماعات الصليبية إذ ذلك ثم من الدمار المغولي بعدئذ ، ووجدت هذه الأسرة ترحيباً من السلطان صلاح الدين فاستقر بها المقام ما بين مصر والقاهرة والاسكندرية ، ومعنى ذلك أن أسرة ابن حجر يرجع وفودها إلى الديار المصرية إلى نهاية القرن السادس للهجرة ، واختلطت بالأهالي - كما اختلط غيرها من الأسر بهم - ، وتمصّرت على مرّ السنين حتى غدت تعتزّ بمصريتها^(١) ، وأنجبت من الأبناء والأحفاد الكثيرين ممن أصبحوا من ذوى الثراء والنفوذ المالى والأدبى فى الدولة ، كما صاهرت كبار رجالات الدولة المماليكية ، ومصدرنا فى هذا الخبر ابن حجر نفسه ، حيث يشير إلى خال أبيه أحمد بن محمد بن براغيث أحد أعيان القاهرة^(٢) ، كما يشير فى موضع آخر إلى ابن عمّ أبيه محمد بن عثمان^(٣) وهو من فقهاء الشافعية بالاسكندرية حتى لقد ذكره العفيف المطرى^(٤) فى ذيل طبقاته ، بل إن أباه علياً تزوّج من أخت زكى الدين الخروبى^(٥) كبير تجار الكارم فى مصر والذي يقال إن دولة الكارمية انتهت بوفاة^(٦) ، كما أن صاحب الإنباء نفسه تزوّج من ابنة كريم الدين بن عبد العزيز ناظر الجيش فى مصر .

(١) حفل ديوان ابن حجر (مخطوطة باريس) بالأمثلة على تعلقه بمصر وحبها إياها ، كما فى قوله ، ورقة ٧٣ ب - ١٧٤ :

متى يتجلى أفق مصر بأفكارى وأروى عن اللقا أحاديث بشار
إلى مصر ، واشواقاً لمصر وأهلها تشوق صب للنوى غير مختار
مرايح لذائق ، وملهى شببى وسبدأ أوطانى ، وغاية أوطارى
ومنزله أحببى ، ومنزه مقلّى ومطلع أفارى ، ومغرب أفكارى .

وقال أيضاً يتشوق لها وهو بدشق عام ٨٠٢ هـ (الديوان ، ورقة ١٠٠ ب) :

دشقى الغادة الحسنى لوصف النهر بالصب
على مصر زهت حسناً ولكن موطنى حبيبى
وقالوا إنها أدنى نعم ، أدنى إلى قلبى

وهو يحن إلى النيل كما فى قوله ، ورقة ٦٩ أ :

تركت شراب النيل حلواً ويردأ فكم خدعة لى بعده بسراب
وفارقت من لا طاق لى بفراقه فما طرق السلوان ساحة بابى

(٢) ابن حجر : الدرر الكامنة ج ١ رقم ٦٦٢ .

(٣) ابن حجر : الدرر الكامنة ، ج ٤ رقم ١٢١ .

(٤) ابن حجر : الدرر الكامنة ، ج ٢ رقم ٢٢٠١ .

(٥) ابن حجر : رفع الاصر ، ص ٨٦ ، والدرر الكامنة ج ١ رقم ١٢٠٥ .

(٦) العيني : تاريخ البدر فى أوصاف أهل العصر (مخطوط بالمتحف البريطانى) ورقة ١٢٣ ب .

هنا نعرض لمسألة أخرى هي أصله ، وقد أشار إليها في غير وقفة طويلة جماعة من المؤرخين في عصره ، وأول هؤلاء أبو المحاسن يوسف بن تغرى بردى صاحب النجوم الزاهرة في معجم تراجمه « المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي » فذهب إلى القول بأن أسرة ابن حجر قدمت أصلاً من بلاد الجريد على حدود قابس في الجزائر ، وأشار إلى ذلك في قوله (١) : « وابن حجر نسبة إلى آل حجر ، تسكن الجنوب الآخر على بلاد الجريد ، وأرضهم قابس » ، ولم يجهد أبو المحاسن نفسه في تبيان المصدر الذى اعتمد عليه في تقدير هذا النسب ، وإن ما ذهب إليه صاحب « المنهل » لينطوى على خطأ تاريخي ضخم ، إذ ليس في سلسلة نسب ابن حجر - سواء التي ذكرها هو نفسه أو حفيده (٢) أو غيرهما من ثقات المؤرخين - ما يفصح عن الإشارة إلى مثل هذا الموطن لأحد من أسلافه ، وليس في ثبته اسم بربرى ، وسكت عن هذه الإشارة العيبى في « عقد الجمان » والسخاوى « في الضوء اللامع » والسيوطى في « نظم العقيان » ، وظلت مطبوعة حتى قُبِضَ لها أن تُبعث في القرن الماضى على يد المستشرق الفرنسى كاترمير (٣) الذى أرجع ابن حجر إلى قبيلة عربية سكنت منطقة بلاد الجريد ، وليس من شك في أن كاترمير كان ناظراً في بعض هذه النسبة إلى ما قاله ابن تغرى بردى ، على أنه من الملاحظ أن كلاً من أبي المحاسن ثم كاترمير من بعده لم يحاول بيان العوامل التى أدت بالقبيلة التى نَمِيَ إليها - على زعمهما - ابن حجر للمجئ إلى بلاد المغرب ، ولم يشير إلى العصر الذى نزحت فيه إلى تلك المنطقة ، وهل جاءت من القبائل العربية التى كانت تعيش في مصر أم هاجرت إليها من بلاد الشام أو العراق أو بلاد العرب ذاتها ، وكل ما يعتد به كلاهما هو كلمة « حجر » .

وإذ ساق كاترمير هذا الخبر - بناءً على رواية المنهل - فإننا بمناقشة هذه الرواية يتجلى لنا خطؤها ، وحسبنا أن نقول إن أبا المحاسن كان حجة في أنساب الترك وليس كذلك في أنساب العرب ، إذ لم يتوفر له حظ كبير فيها وليس بذى القُدح الملقى في هذا الميدان ، ومرجع هذا الخطأ التاريخي عند أبي المحاسن هو خلطه بين قبائل « حَجَر » و « حُجَر » و « حَجَر » ،

(١) أبو المحاسن : المنهل الصافي ، مخطوطة باريس ، ورقة ٨٩ ب .

(٢) يوسف بن شاهين : النجوم الزاهرة بتلخيص قضاة مصر والقاهرة ، مخطوطة باريس ، رقم ٢١٥٢ ، ورقة ١٨ ب .

Quatremère : Histoire de Sultans Mamlouks, t. I, pt. 2, P. 219 .

(٣)

إذ كانت القبيلة الأخيرة وحدها - وهي من بني أسد - وليست قبيلة «حَجَر» - هي التي تعيش في بلاد الجريد حول قابس^(١) ، ومن ثم خلط. أبو المحاسن بين «حَجَر» و«حَجَر» ، فأدى به ذلك إلى نسبة ابن حجر العسقلاني - صاحب الإنباء - إلى قبيلة «حَجَر» .

ومن ناحية أخرى نرى السيوطي - في ترجمته لصاحب الإنباء - يذهب للقول بأن ابن حجر عربي الأصل ، دون أن يسوق على هذا الرأي دليلاً قوياً - أو شبه قوى - يدعمه ويؤكد صحته ، ولعل الذي حمله على سلوك هذا المسلك شدة إعجابه به وعظيم تقديره إيّاه ؛ وربما بنى السيوطي هذا الزعم على ورود كلمة «الكناني» في سلسلة نسب ابن حجر ، وإن لم تنهض في ذاتها دليلاً على الوصول به إلى ذلك الأصل ، وربما قيل إن ابن حجر نفسه أشار إلى هذا الأصل ، غير أن إشارته لم تعد - في كل ما أُلّف وأُمِل - مرتين ، أولاهما في إجازة أجازها لأحدهم جاء فيها :

مِنْ أَحْمَدَ بْنَ عَلِيٍّ بْنِ مُحَمَّدٍ بَنِي مُحَمَّدَ بْنَ عَلِيٍّ الْكَنَانِيَّ الْمُحْتَدِ
وَلَجَدَ جَدَّ أَبِيهِ أَحْمَدَ لُقُبُوا حَجَرًا ، وَقِيلَ بِلِ اسْمِ وَالِدِ أَحْمَدَ^(٢)

وثانيهما إشارته العابرة بأنه قرأ بضعة أسطر بخط أبيه يذكر فيها أنه «كناني^(٣)» الأصل ، ولم يعلّق ابن حجر على هذه الأسطر بنق أو إثبات ، وفي رأينا أن لو كانت هذه النسبة ترتكز على أساس مدعم قوى لأوردها ابن حجر في مؤلفاته وفتاويه وإجازاته ، ولكن ذقته في تحرّى الحقيقة التاريخية وتجربته لكل ما تُشتمّ فيه رائحة الضعف - وذلك بفضل حاسته كمحدّث - باعدًا بينه وبين الوقوع في مثل هذا الزعم ، ولو شاء ابن حجر أن ينحو هذا النحو في نسبة أجداده لقبيلة عربية لتيسّر له الأمر ، ولما وجد من ينكره عليه في عصره لا سيما ما لوحظ. في العصر الذي عاش فيه صاحب الإنباء من وجود فئة من المؤرخين سلکوا مسلكًا يجافي الحقيقة ، وذلك حين نسبتهم جماعة المماليك إلى نبعة عربية ، ولم يقتصر أمر هذه الفئة من المؤرخين

(١) راجع السويدي : سبائك الذهب في معرفة قبائل العرب (ط . بوباي) ، ص ١٠٠ ، والأزدى : المؤلف والمختلف في أسماء نقلة الحديث (الهند ١٣٢٧) ، ص ٢٧ - ٢٨ ، وراجع أيضا

Wustenfled: Gleichheit und Verschiedenheit der Arabischen Stammenamen, P. 30

(٢) السخاوي : الجواهر والدرر في ترجمة شيخ الاسلام ابن حجر (مخطوط باريس) ورقة ١٣ ب .

(٣) ابن حجر : المعجم المفهرس ، مخطوطة بالمتحف البريطاني ، ورقة ٨٧ أ .

على صغارهم أو الذين يرتجون فضلاً ورفداً ونوالاً من أصحاب السلطة والتفوذ بل تعداه إلى بعض كباراتهم ، بل إن المقریزی ذاته - على جلالة قدره في التاريخ - لم يسلم من هذا الاتجاه الذي أريد به - عند غيره بطبيعة الحال - التقرب إلى ذوى السلطان والحكم ، فنسب الأكراد إلى أصل عربي ، وما كان لرجل كالمقریزی - وقد استقامت له أدوات البحث والتقصي التاريخي ولو بمفهوم عصره ، والمعرفة الدقيقة بالأنساب العربية - أن يزل هذا الزلل وهو أول المدركين لخطئه وعدم صموده أمام النقد التاريخي (١) .

ولو كان ابن حجر عربي الأصل تماماً كما يذهب السيوطي لوجدنا ورود هذه الإشارة في كتاب «الجواهر والدرر في ترجمة شيخ الإسلام ابن حجر» الذي ترجم فيه السخاوي لأستاذه ترجمة مطولة رائعة ، قيد فيها كل شاردة وواردة في حياة شيخه ، لكن الواقع أننا لا نصادف مثل هذا الرأي في «الجواهر» ، ولا شك أن السخاوي كان من أدري رجال عصره ومؤرخيه - إن لم يكن أدرهم جميعاً - بسيرة أستاذه ، وكان تعلقه به حاملاً إياه على ملازمته في غدواته وروحائه مهياً له الفرصة - أكثر من مرة - في رفع كل حجاب بينه وبينه ، حتى إن ابن حجر - على جلالته وقدره ورفعة مكانته وسعي الجميع في خدمته - وقف يخدم بنفسه يوم عرس السخاوي (٢) ، وكان هذا للسخاوي شرفاً لا يطمع فيه طامع ، ومن ثم فإنه كان لنا أن نتوقع من السخاوي - وهذه وشيخته بشيخته - أن يشير إلى أصل ابن حجر الكنانى العربى ، هذا فضلاً عن أن ابن حجر نفسه لم يورد في كلامه - حين سأل السخاوي عن أجداده وأصله - أية معلومات وافية ، ولم يستطع أن يتعرف على أكثر من ستة أجيال منها (٣) ، وعلى هذا الأساس يصحح لنا أن نتساءل : «أىكون في قدرته - وهو عاجز عن معرفة أجداده القريبين - أن يعرف عن أسلافه الذين تباعد بينه وبينهم قرون» ؟

إذن فما هو أصل ابن حجر ؟

(١) راجع السلوك للمقریزی ، (نشر زيادة) ص ٣ وحاشية رقم ١ ، غير أنه من الملحوظ أن المقریزی أنكر هذه النسبة في كتابه المواعظ والاعتبار ، وقد يثير تناقضه في مرجعين كبيرين - ارتبطت بهما شهرته كؤرخ - إلى مشكلة نسبة المواعظ إلى الأوحدي المؤرخ .

(٢) راجع زيادة : المؤرخون في مصر ، ص ٤١ .

(٣) السخاوي : الجواهر والدرر ، ورقة ١٨ ب .

نسوق فكرة لا نقطع فيها برأى بات* ، وإنما نعرضها ولعل هناك من يستطيع تبيان الحقيقة - وما هي بالثافهة - سواء أكان ذلك التبيان بالنفي أو التأييد ، تلك الفكرة هي أننا نلمح في أسرة ابن حجر نسباً قريباً لا يمتّ بصلة إلى أحد الرأيين اللذين جاء بهما أبو المحاسن ثم من بعده السيوطي ، وهو نسب كرديّ ربما كان هو الآخر مسلسلًا من أصل عربي . وللتدليل على ذلك نقول إن السخاوي يذكر أن شيخه ابن حجر ردّ أصله في كتابه « صفة النبي » إلى جد سناه « أحمديل » في قوله : « هو أحمد بن علي بن محمد بن محمد بن علي بن أحمد بن أحمد بن أحمديل^(١) » ، وقد لاحظنا أن هذا الاسم - وهو أحمديل - يرد في ترجمة عم ابن ابن حجر واسمه « شعبان بن محمد » . وورود هذه النسبة عند ابن حجر نفسه وبقله ذاته وعند السخاوي دليل على أن أحد جدود هذه الأسرة كان يسمى « بأحمديل » وهو إسم كردي صريح لا شبهة في كرديته ، وليس ابن حجر - وهو النسابة الثقة - بمن ينتحل لأحد قبيلة ليس له فيها عرق .

ولا شك أن « أحمديل » إسمٌ يتردد في أسماء الأكراد ، وحسبنا أن نشير إلى رجلٍ يحمل هذا الاسم في عصر نور الدين محمود بن زنكي وهو « أحمديل^(٢) بن إبراهيم » حاكم أذربيجان الذي سماه أمدروز Amedroz - ناشرٌ ذيل تاريخ دمشق - بالأمير « الكردي^(٣) » ، ثم جاء من بعد ذلك العالمان : الانجليزي سير هاملتون جب Sir. H. Gibb الذي ترجم إلى الإنجليزية مقتطفات من تاريخ ابن القلانسي تتعلق بالحرب الصليبية الأولى ، ولم يتعرض^(٤) لتخطئة ابن القلانسي أو لنقد أمدروز ، ثم جاء مسيو « روجيه لي تورنو » R. Le Tourneau فسكت^(٥) كما سكت من قبل الأستاذ جب ، وسكوت هذين المستشرقين الكبيرين بل عدم تعرضهما بالتشكك في صحة الاسم عند ابن القلانسي أو النعت عند « أمدروز » يعدّ قبولاً منهما لنسبة « أحمديل » إلى الأكراد ، فإذا تقرّر ذلك في الأذهان ، وصحّحت معه إشارة ابن حجر بخطه إلى هذا الاسم في

(١) السخاوي : الجواهر والدرر ، ورقة ١٣ ب .

(٢) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٧٤ .

(٣) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ، فهرس الأعلام ، ص ٣٦٦ .

(٤) Gibb : Damascus Chronicle, p. 114.

Roger Le Tourneau : Damas de 1075 à 1154, pp. 106, 146 .

(٥)

نسبه في «صفة النبي» برزت في بؤرة الترجيح فكرة العرق الكردي في أسلاف ابن حجر ، ومن الثابت تاريخيا أنه كثر وفود الأكراد إلى بلاد الشام ومصر وفلسطين زمن نور الدين زنكي وصلاح الدين الأيوبي من بعده ، وكان وفودهم في هجرات ظلت تترى إلى مصر - على وجه الخصوص - ويأخذ بعضها بحجز البعض الآخر مدة تقرب من الأعوام الثمانين الأولى من حكم الدولة الأيوبية (١) ، كما أن في المصادر والوثائق المملوكية دلائل صريحة على أن بعض القبائل الكردية قد استقر بها المقام في بلاد الشام وفلسطين كجاليات حربية (٢) ، ولا يستبعد والحال هذه أن تكون ثمت أسرة تدعى بأسرة «أحمد يل» ترجع لأصل عربي قديم قد وفدت إلى فلسطين مع من وفد ، وإلى عسقلان بالذات ، ثم تناسلت اسمها الكردي ، كما لا يستبعد أن يكون ابن حجر قد آثر الصمت عن هذه النسبة في عصر الماليك الجراكسة الذي كاد يخلو من جنس الكرد .

* * *

أما عن أسرة ابن حجر فليس بين أيدينا مراجع أو إشارات وافية دقيقة عنها ، ولكن هناك نتفا قلائل مبعثرة في ثنايا كتب التراجم والمعاجم نستطيع - بضم بعضها إلى بعض - أن نكون صورة - قد تكون تقريبية - عن هذه الأسرة ، وكيف أن بعض أفرادها شغلوا مراكز دينية في مصر ، وكيف أن البعض الآخر اتخذ التجارة وسيلة للرزق ، وانصرفوا بها انصرافاً غير مبتور ولا مجزوء عن التدخل في الشؤون السياسية يومذاك ، فلم يلحقهم من العنت والاضطهاد والمصادرة والتنكيل ما لحق بالغير مما تفيض به حوليات تلك الفترة .

فيحدثنا ابن حجر عن عم أبيه عثمان بن محمد بن علي العسقلاني المعروف بابن البزاز ، وأنه سكن الاسكندرية ، ومهر في الإفتاء على مذهب الشافعي حتى صارت إليه رئاسة هذا المذهب في الثغر ، وحتى نعته فخر الدين بن عمرو بأنه «مفتي الثغر وفقه الشافعية في زمانه» ، كما تفقه به جماعة ممن نبه الجيل باسمهم في الحديث والفقه كالدمهوري وابن الكويك (٣) .

(١) Ayalon : The Wafidiya in the Mamluk Kingdom (1951), pp.89, 98 — 99.

(٢) Cf. Poliak: Feudalism in Egypt, Syria, Palestine and the Lebanon (1250 - 1900) .

(٣) ابن حجر : المعجم المفهرس (لندن) ورقة ٨٧ ، والدرر الكامنة ج ٢ رقم ٢٦٠٧ .

ومنهم أيضا قطب الدين محمد المتوفى سنة ٧٤١هـ الذى كان يستبضع الحرير بالاسكندرية إلى جانب قيامه بتدريس الحديث الشريف ، وأنجب خمسة أبناء أصغرهم نور الدين على والد أحمد صاحب « إنباء الغمر » ، وكان مولد على سنة ٧٢٠ ونشأ في كنف الثراء مما أتاح له فرصة العناية بالدرس والتحصيل ، وكان له ولع بالفقه والأدب والشعر ، حتى خلف - كما ذكر ابنه في ترجمته - « عدة دواوين منها ديوان الحرم وهو مدائح نبوية مكية (١) » ، ولم يفتَهُ أن يدون أحداث عصره الكبرى ، ووجدت هذه الأحداث لها انعكاسا وصدى تردّد في قصائده التي لم تقتصر على الجانب الدينى فقط . وهو وإن فاته المشاركة في الدفاع عن الاسكندرية وصدّ هجوم القبارصة عليها عام ٧٦٧ هـ (= ١٣٦٥ م) - ذلك الهجوم الذى عُذّ من نكبات الإسلام يومذاك - فإنه لم يفته تصوير ذلك في شعره ، وقد أورد له السخاوى بعض شعره في هذا الوقت في كتابه « الجواهر والدرر » .

وقد هيأته قدرته الأدبية ومكانته على أن تتوثّق أواصر المودة بينه وبين جماعة من نبهاء عصره في ميدان العلم والمال ، كابن نباتة الشاعر وابن عقيل النحوى وزكى الدين الخروبي رئيس التجار بالديار المصرية الذى « دَاخَلَ الدولة وتعاى الرئاسة إلى أن فاق الأقران وخضع له أكابر التجار وصار عين أعيانهم » ، وكان نور الدين على - والد صاحب الإنباء - قد احترف التجارة ، وأورد له أبو المحاسن (٢) شعراً يشير فيه إلى استبضاعه الكتان ، وفيه يقول :

اسكندريّة كم ذا يسمو قماشك عزّاً
فَطَمْتُ نَفْسِي عنها فَلَسْتُ أَطْلُب بَرّاً

ولا مشاحة في أن اشتغاله بهذه بالتجارة قد درّ عليه من الكسب ما جعله يرتع في بحبوبة العيش وأغناه عن التمسك بالوظائف وإن شغل منها وظيفة نائب الحكم بالقاهرة لابن عقيل الذى توثقت بينهما عرى المودة (٣) وارتفعت عن مظان الشبهة والمنفعة الذاتية ، فأثرها على الوظيفة يوم أن ولى ابن جماعة القضاء وغدا بينهما شيء من التنافس .

(١) راجع ترجمة رقم ٤٣ في وفيات عام ٧٧٧ ص ١١٦ - ١١٧ في هذا الجزء من الإنباء ، وكذلك شذرات الذهب ، ج ٦ ص ٢٥٢ .

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة (ط . القاهرة) ج ١١ ص ١٢٣ .

(٣) ابن حجر : المعجم المفهرس ، ورقة ٨٧ ب .

وقد تزوج نور الدين على من «تجار» ابنة محمد بن إبراهيم الزفتاوى عام ٧٦٦ هـ ، والدلائل متوفرة على أنها خرجت من أسرة ثرية موفرة المال والجاه معا ، فأخوها أحد تجار الكارم بمصر وقد أسس من ماله الخاص قاعة في مصر تجاه مقياس الروضة ، وكانت تجار - قبل خطبتها لنور الدين - تحت أحمد بن محمد بن عبد المهيم البكرى الذى تعلق بتعاليم ابن عربى ، فاستولدها ولدهما عبد الرحمن الذى نشأ في بحبوحة الثراء وتقلب في مطارف النعمة ، بيد أن القدر لم يمهلهم فما لبث أن مات فورثه أبوه البكرى ، ثم طُلقت تجار من البكرى لسبب لا ندره وزُفَّت بعده إلى نور الدين على فأنجبت له طفلين هما : ست الركب التى وُلدت وهم في طريقهم إلى الحجاز عام ٧٧٠ هـ والى ترجم لها ابن حجر في معجم شيوخه (١) وفي الإنباء وإن لم يترجم لها في الدرر الكامنة ، أما الطفل الآخر فهو «أحمد» صاحب «إنباء الغمر بأبناء العمر» وذلك في شعبان (٢) سنة ٧٧٣ هـ بناحية مصر بجوار منطقة دير النحاس والجامع الجديد (٣) .

ولقد ظل صاحبنا أحمد بن على بن حجر العسقلانى - الذى كناه أبوه بأبى الفضل (٤) - مقيا في هذه الناحية (٥) ، والظاهر أن تجارا ماتت وأحمد لا يزال طفلا فوجد الرعاية والعطف والحنان من أخته ست الركب وبادلها حبا بحب ، يتجلى في وصفه إياها - حين تقدمت به الأيام ولم تنزل ذكراها ترف رقيقة بخاطره - فقال : « كانت أمى بعد أمى (٦) » ، والظاهر أن أباه كان شديد العناية به حريصا على أن يكون له ولد ذكر من صلبه كما يبدو ذلك مما نطالعه

(١) ابن حجر : المعجم الفهرس ، ورقة ١٨٢ وراجع أيضا ترجمة رقم ٢٠ ص ١٧٥ في هذا الجزء من الإنباء .
(٢) راجع : السخاوى : الجواهر والدرر في ترجمة شيخ الاسلام ابن حجر ، ورقة ١١٤ ، ونظم العقيان للسيوطى ، ص ٤٥ ؛ والنجوم الزاهرة في قضاة مصر والقاهرة لابن شاهين (مخطوطة المتحف البريطانى وسها صورة على فيلم بمكتبة آداب جامعة عين شمس) ورقة ١٢١ ، ابن حجر

Quatremère : Op, Cit. t. I, pt. 2, p. 209.

(٣) القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٣ ص ٣٤٦ .

(٤) هكذا كناه أبوه كما ورد في كلامه هو عن نفسه في معرض ترجمته له حيث قال « وأحفظ عنه أنه قال : كنية ولدى أحمد : أبو الفضل » .

(٥) ظل ابن حجر مقيا في هذه الناحية المعروفة الآن بمصر القديمة حتى بلغ الثالثة والعشرين من عمره حين تزوج لأول مرة في شعبان ٧٩٨ هـ من ابنة كريم الدين بن عبد العزيز ناظر الجيش في مصر .

(٦) ابن حجر : المعجم الفهرس ، ورقة ١٨٢ .

في ترجمة أحد المعتقدين بمصر وهو الشيخ يحيى الصنافيرى الذى « كثر مكاشفاته حتى صارت في حدّ التواتر (١) » .

وكان لنور الدين على ولدٌ من غير زوجته تجار ، فَضَّلَ وقرأ « المنهاج » في الفقه ثم أدر كته المنية فكان موته نازلة ارفض لها صبر أبيه فاستسلم للوجد وأمسى لا يتقارّ من الجزع ، غير أن عقيدته في الشيخ يحيى الصنافيرى حملته على تلقى المصاب بجُنّة من صبره وذلك حين بشره الشيخ بأن الله سيخلف عليه ولدا ويعمره (٢) ، فولدت له « تجار » ولدهما أبيا الفضل « أحمد » ، لكن ما لبث الأب أن مات وابنه ما زال في الرابعة من عمره ، وكان قد عهد برعايته - حين حضرته الوفاة - إلى اثنين من أبرز رجالات عصره أحدهما زكى الدين الخروبي وثانيهما شمس الدين محمد بن القطان (٣) الذى نقل عنه ابن حجر مرات عدّة فيما شهد ابن القطان ثم دونه في ثانيا كتابه « إنباء الغمر » ، ثم انقطع أخذه عنه بموته عام ٨١٣ هـ (٤)

غير أن الشخص الذى عنى بتربية أحمد الصغير أشدّ العناية كان زكى الدين الخروبي الذى ربطته بنور الدين على رابطة المصاهرة ، نستدل على ذلك مما أورده ابن حجر ذاته من أن أباه كان متزوجا من أخته ، ولسنا نعرف أكانت هذه الزوجة هى التى أنجبت له الولد الذى قبض قبل أحمد أم غيرها ، وعلى أية حال فما كاد نور الدين على يموت حتى كفّل الخروبي أحمدًا اليتم ورعاه وأدخله الكتاب ، وسرعان ما تجلّت قدرته وظهرت مقدرته في التحصيل ، فما انقضت خمس سنوات حتى كان قد أتم حفظ القرآن وتجويده ، كما وضع للبيان ما وهبه الله من حافظّة واعية حيث حفظ سورة مريم في يوم واحد ، وقد عاونته هذه الحافظة القوية فيما بعد على استيعاب الأحاديث والروايات ، فكان لا يقرأ شيئا إلا انطبع في ذهنه وظل حيا رغم مرّ السنين وتوالى الأحداث وتراكمها ؛ والواقع أن الفضل الأكبر في إبراز ملكات أحمد وتوجيهها التوجيه الصحيح يرجع إلى زكى الدين الخروبي الذى لم يأل جهدا في رعايته وتثقيفه ، وكان الخروبي كريم الهمة فيما يتعلق بتربية أحمد فجعل له مربية

(١) ابن حجر : الدرر الكامنة ، ج ٤ رقم ١١٩٩ .

(٢) ابن حجر : الدرر الكامنة ، ج ٤ رقم ١١٩٩ .

(٣) السخاوى : الجواهر والدرر ، ورقة ١٥٨ .

(٤) ابن العماد الحنبلى : شذرات الذهب ، ج ٧ ص ١٠٤ .

خاصة وجعل له مدرسين خصوصيين منهم شمس الدين بن العلاف الذي صار مختسب مصر سنة ٧٩١هـ وهو الذي أقرأه القرآن ، وكذلك محمد بن السفطي ، فلما كان رمضان سنة ٧٨٥هـ^(١) شَخَّص الخروبي إلى الحجاز وبصحبته أحمد ، وجاورا بمكة مدة تقرب من السنة ، وهنا أُتيحت لابن حجر الفرصة لمتابعة بعض الدروس الدينية تحت إشراف أول شيخ له في الحديث ونعني به عبد الله بن سليمان النشاوري^(٢) الذي نعتة اليافعي^(٣) بأنه آخر أصحاب الرضى الطبرى ، وكان النشاوري ممن يعتد بهم ويُعَوَّل عليهم في رواية الحديث ، وقد تهيأت الفرصة لابن حجر في هذه السنة التي أقامها بمكة مجاوراً - أن يحضر عليه « صحيح البخارى » .

أما ثانی هذين الشيخين اللذين اختلف ابن حجر إلى دروسهما في مكة فهو جمال الدين بن ظهيرة^(٤) .

وقد أتم ابن حجر أثناء إقامته بمكة القرآن الكريم تلاوةً وحفظاً ، وكان المأمول - وقد حفظ الكتاب الكريم - أن يصلى بالناس إماماً سنةً جرى عليها القوم آنذاك يوم يتم الفرد حفظه ، غير أنه جدّ من الأمور ما حال بينه وبين ذلك الشرف ، على أنه مما لا جدال فيه أن شخوصه إلى مكة كان حافزاً له على التعلّق بدراسة الحديث والانكباب على استيعابه والتحقّق من رجاله وأسانيده ، حتى أصبح « المحدث » و « الحافظ » ، وما كاد يؤوب من بيت الله الحرام وقد استظهر كتاب الله الكريم ووعت ذاكرته « صحيح البخارى » حتى حضر دروس سليمان بن عبد الناصر الأبيشيلى^(٥) الذى كان « جيد الاستحضار للعلم » على حدّ قول ابن حجر ذاته عنه^(٦) .

(١) ابن حجر : الدرر الكامنة ، ج ١ رقم ٥١٩ .

(٢) ابن حجر : الدرر الكامنة ، ج ٢ رقم ٢٢٢٩ ؛ وترجمة رقم ١٨ من وفيات سنة ٧٩٠ ص ٣٥٨ - ٣٥٩ في هذا الجزء من الانباء ، وابن العماد الحنبلى : شذرات الذهب ج ٦ ص ٣١٣ .

(٣) اليافعى : سيرة الجنان ، ص ٢٦٧ - ٢٦٩ ، وابن حجر : الدرر الكامنة ، ج ٢ رقم ٢٢٢٩ ، والمعجم المفهرس ، ورقة ٤٢ أ - ب ، والسخاوى : الجواهر والدرر ، ورقة ١١٨ .

(٤) ابن حجر : المعجم المفهرس ، ورقة ٩٦ أ .

(٥) السخاوى : الضوء اللامع ج ٣ رقم ١٠٠٣ ، وابن العماد الحنبلى : شذرات الذهب ج ٧ ص ٩١ .

(٦) راجع الانباء ، سنة ٨١١ هـ .

بيد أن موت زكي الدين الخروبي عام ٧٨٦هـ كان نكبةً عليه إذ فقد العناية التي كان يلقاها من وصيه في حياة وصيه ، وغبرت فترة ركود عاد بعدها ابن حجر - وقد بلغ السابعة عشرة من عمره - لمتابعة دراسته تحت إشراف وصيه الثاني شمس الدين محمد بن القطان الذي درّس له الفقه واللغة والحساب (١) .

* * *

عنى ابن حجر بالدرجة الأولى بدراسة الحديث وانصرف إليه انصرافاً غير مجزوء مدى عشر سنوات امتدت من سنة ٧٩٧هـ حضر خلالها مجالس شيوخه وشيخ عصره في هذا الفن : عبد الرحيم العراقي والبلقيني ، وشيخه في الفقه : ابن الملقن .

أما البلقيني فهو عمر بن رسلان الكنانى العسقلاني (٢) الذى كان يعدّ أبرز فقهاء عصره وضرب في هذا الفن بسهمٍ وافر حتى لقد استرعى انتباه اثنين من شيوخه هما تقي الدين السبكي المتوفى سنة ٧٤٤هـ الذى يُجمع ثقات المؤرخين على أنه كان لا يجارى في هذا الميدان (٣) ، أما الآخر فهو محمد بن أحمد بن عثمان بن إبراهيم بن عدلان (٤) الذى لم يقدم الإسنوى عليه أحداً . وقد أظهر البلقيني منذ سن مبكرة أصالةً في حلّ المشكلات الفقهية على قواعد من المنطق حتى لقد اختاره ابن عقيل ليكون نائب الحكم عنه (٥) ، كما أن ابن كثير جعله في مرتبة ابن تيمية .

وكان البلقيني ذا نزعة إصلاحية ، ففي حوليات ذلك العصر إشاراتٌ صريحة لما كان له من فضلٍ في إلغاء بعض المكوس مثل ضمان المغاني زمن الأشرف شعبان (٦) ، وقد خلف البلقيني مؤلفات قلائل ولكنها ذات أهمية بالغة في الفقه لا يزال معظمها موجوداً ، ويتجلى تقدير

(١) ابن قاضي شهبة : طبقات الشافعية (مخطوط بالمتحف البريطاني) ، ورقة ١٩٥ ، السخاوى : الجواهر والدرر ، ورقة ١٠٨ ب .

(٢) وردت هذه النسبة في طبقات الشافعية لابن قاضي شهبة ، ورقة ١٩٠ ، ولحظ الألفاظ لابن فهد ص ٢٠٦ ، 4 Brockelmann: Gesch. der. Ar. Lit., II, p. ولكنها لم ترد في الأنباء ، ولا في ذيل السيوطي ص ٣٧ ولا في الشذرات ، ج ٧ ص ٥١ .

(٣) التذكرة للدشقي ص ٥١ ، وذيل طبقات الحفاظ للسيوطي ص ٣٥٢ ، والشذرات لابن العماد ، ج ٦ ص ١٨٠ ، وابن فهد : لحظ الألفاظ ، ٢٠١ .

(٤) ابن حجر : الدرر الكامنة ج ٣ رقم ٨٩١ ، والشذرات ج ٦ ص ١٦٤ .

(٥) طبقات الشافعية لابن قاضي شهبة ، ورقة ١٩٠ ب .

(٦) راجع الضوء اللامع للسخاوى ، ج ٦ ص ٨٥ - ٨٦ ، ولحظ الألفاظ لابن فهد ، ص ٢٠٨ .

ابن حجر لقفه أستاذه في ترجمته اللتين أودعهما إنباء الغمر والمعجم المفهرس ، وكذلك ترجمته إياه في ذيل الدرر ، غير أن البلقيني كان ركيك الأسلوب في العربية ضعيفه حتى ليقول النواجي^(١) الشاعر المصري إن الشيطان « وجد سبله إلى البلقيني مقفلة فجاءه من باب ما نظم » .

أما ثاني هؤلاء الأساتذة الذين يدين لهم ابن حجر بالفضل فهو ابن الملقن الذي خلف مجموعة ضخمة من الكتب القيمة^(٢) ، وقد ولد ابن الملقن بالقاهرة سنة ٥٧٢٣ هـ ، وكان أبوه قد قدم في الأصل من وادي آش بإسبانيا ومن ثم يرد اسمه أحياناً في ترجماته بالوادي آش ، وعده كل من ابن فهد والسيوطي بين جماعة الحفاظ ، وقد شرع ابن الملقن في أخريات حياته في وضع شرح لصحيح البخاري في قرابة عشرين مجلدة ، على أنه يقال إنه كان في دروسه أحسن منه في كتاباته .

ولقد شارك ابن الملقن في مضمار الحديث معاصره عبد الرحيم بن الحسين المعروف بالعراقى الذى برز في القراءات واللغة وفقهها^(٣) ، فأكثر من الرحلة في طلب الحديث ، وهيأت له أسفاره العدة الفرصة لمعرفة رجالاته مما كان له أثر غير منكور في توجيه تلميذه ابن حجر حتى صار إليه الرجوع فيه ، وعليه المعول في التثبت من رواته ، وقد ولى العراقى وظائف التدريس والإفتاء في مصر ودمشق ومكة ، وخلاصة القول أن ابن حجر تتلمذ على يد ثلاثة من أعلام فنونهم ، ولقد أجمل ابن شعبة أهميتهم في نعته إياهم بأنهم كانوا معجزة زمانهم^(٤) .

* * *

ولقد شغل ابن حجر كثيراً من الوظائف الهامة في الإدارة المملوكية المصرية ، وهى وظائف هيأت له السبل للوقوف على ما جريات السياسة المصرية ودخائلها آنذاك ، ومكنته من الاتصال المباشر بالمصادر الأولى لأحداث هذا العصر سواء أكانت هذه المصادر هى السلاطین أنفسهم أم كبار رجالات الدولة أم طلاب العلم أم الوثائق التى لم تتوفر كثيراً لمن عاصروه من المؤرخين ، ويتجلى هذا كله فيما ازدحمت به سطور « الإنباء » من الإشارات الجمة إلى روايته عن بعض السلاطين كالمويد شيخ والظاهر ططر ، وفي استعماله مكاتبات وتقارير لم ترد عند غيره ،

(١) السخاوى : الضوء اللامع ، ج ٧ رقم ٥٧١ .

(٢) لحظ الألفاظ لابن فهد ، ص ٢٠١ .

(٣) ابن فهد : لحظ الألفاظ ، ص ٢٠١ .

(٤) ابن قاضى شعبة : طبقات الشافعية ، ورقة ١٩٢ ب .

ومثال ذلك ما سيراه القارئ من التقرير الذى كتبه إبراهيم بن البقاعى عن حملات جقمق الثالث التى أنفذها لمحاربة قراصنة الكتلان والاستتارية ورودس مما يلقى ضوءاً جديداً كل كل الجدة على حقيقة هذه الحملات مما يغير ما اتفق عليه حتى الآن بين المؤرخين^(١) ، ومثال دفته حين يورد هذا التقرير يثبت به بخط البقاعى .

واستطاع ابن حجر بفضل مكانته فى دوائر الحكم العليا أن يصور فى الأنباء أحداثاً معينة فى حقيقتها مثل كشفه القناع عن محاولة فاشلة لمحاولة صليبية بين أراجون والحبشة فى زمن برسباى لسحق قوة مصر وتحويل مجرى النيل^(٢) ، وهو بهذا يرينا أن فكرة فيليب دى ميزير Philippe de Mezière قد ظلت حية فى أذهان جماعات كثيرة من أهل الغرب فى القرن الخامس عشر ، وأهمية هذا عند المشتغلين بدراسة الحروب الصليبية هو إمكان كتابة فصول جديدة فيها معلومات تظهر لأول مرة فى الشرق والغرب على السواء .

وتهاً لابن حجر أن يشغل وظائف التدريس المختلفة والإفتاء ودار العدل وقاضى القضاة الشافعية ، ويلاحظ أنه غنى عناية فائقة بالتدريس الذى لم يصرفه عنه شيء ألبته حتى أيام توليه القضاء والإفتاء ، وكان لا يقدم عليه أى منصب مهما بلغ من الرفعة ، وكانت مجالس إملائه تزدحم بشخصيات كبيرة لمعت فى أفق الحديث والتاريخ والأدب .

تولى ابن حجر تدريس الحديث وقد اكتملت له أسبابه فعهد إليه السلطان فرج بن برقوق بعقد مجالس إملائه فى المدرسة الشيعونية عام ٨٠٨ (= ١٤٠٥ م) ويشير القلقشنندى إلى أن وظيفة التدريس بهذه المدرسة كان يُعهد بها - من قبل السلطان - إلى أبرز رجالات هذا العصر ، ولقد عكف ابن حجر على الإملاء وعكف تلاميذه على الأخذ عنه ، فإذا مجالس إملائه فى الشيعونية تولى فيها بعد كتابه « الإمتاع بالأربعين المتباينة بشرط الإسراع » ، ثم قام فى العام التالى بتدريس الحديث ولكن فى المدرسة المحمودية التى كانت من أحسن مدارس عصرها فى مصر والشام إلى جانب ما زخرت به من آلاف المجلدات فى شتى فنون المعرفة السائدة يومذاك ، والظاهر أن ابن حجر كان حريصاً على تولى أمر هذه المدرسة نظراً لمكتبته ، إذ يحدثنا تلميذه السخاوى بأن شيخه عمل لها فهرستين إحداهما بالحروف الهجائية والأخرى حسب

Cf. H. Habashi : Egyptian Expeditions against Dastelrosso & Rhodes.

(١)

(٢) السخاوى : الجواهر والدرر ، ورقة ١٣٣ ب .

الموضوعات ، وظل ابن حجر بهذه المدرسة قيما على مكتبتها ثلاث سنوات نُقل بعدها إلى مدرسة جمال الدين الأستاذار عند أول افتتاحها سنة ٨١١هـ ، ويذكر المقرئى أنه كان بها خمسة من شيوخ العلم يتناول كل منهم ثلاثمائة درهم شهريا .

* * *

وتتناول مخطوطة «إنباء الغمر بأنباء العمر» تاريخ مصر والشام والدول التى تناخهما والى كانت لها هما علاقات أيا كانت صورة هذه العلاقات ، وكذلك تراجم الرجال والنساء الذين قُدر لهم أن يموتوا خلال هذه الحقبة التى تتضمنها «الإنباء» ونعى بها من سنة ٧٧٣هـ (وهى سنة مولد ابن حجر) حتى عام ٨٥٠م أى قبل وفاته بعامين ، ومن ثم كانت الإنباء شاملة للفترة الأخيرة من حكم السلطان شعبان ثم برقوق وفرج والمؤيد شيخ محمودى وبرسباى ولجزء من سلطنة جقمق ، ولم يقف ابن حجر عند حدّ الأحداث السياسية فى عام يومه إذ ذاك بل تناول الأوضاع السياسية والاقتصادية والتجارية ، كما تضمنت إشارات فريدة إلى التكتلات الصليبية الغربية والمحالفات التى كان الغرض منها القضاء على قوة مصر ، وهى أحداث ضخمة أيلتها الوثائق المحفوظة فى بعض دول أوربة .

كلهك ألمّ بالأوضاع الاجتماعية للشعب المصرى ، ولم تفته الإشارة فى كثير من الأحيان إلى الأدب الشعبى ممّا نستطيع معه رسم صورة حية لهذا المجتمع ، ومن ثم تطرّق إلى ذكر الأدياء والفقهاء والقضاة ورجال الدين والمعتقدين وأصحاب الحرف وشهيرات النساء فى عالم العلم والغناء والسياسة ، كما أشار إلى التطورات التى أخذت سبيلها إلى الحياة اليومية سواء ما كان منها نابعا من الناس أنفسهم أو متصلا بتفسيرات ترتكز على أساس من الفقه والشرعية كنظام الأوقاف وما كانت تمليه سياسة الوقت إذ ذاك ، هذا إلى ما تضمنه «الإنباء» من وثائق ضاعت أصولها أو أخرى استكتبها من أصحابها أنفسهم فكانت له بذلك أسبقية على كثير من مؤلفات غيره .

* * *

وقد اعتمد ابن حجر فى تدوين محتويات «إنبائه» على عديد من المراجع المعاصرة التى ذكر أسماء أصحاب البعض منها فى مستهل كتابه ، ثم أشار فى كثير من المواضع - وحيث استلزم الأمر - إلى من أخذ عنهم ، وقد كتب إليه البعض بأنباء حضروها وكان هو غائبا عنها ، ثم هناك فريق رحل إليهم ابن حجر ذاته فحدّثهم وحدّثوه وسمع منهم ، وكان ابن حجر من

أصحاب الرحلة في تتبع الأخبار ما بين صعيد مصر واسكندريتها وبلاد الشام والحجاز واليمن ، ولقد أتاحت له هذه الأسفار مزيداً من الأخبار والتراجم لا نجدها بهذه الوفرة وتلك الدقة عن غيره ممن عاصروه كالمقريزي والعيني وأبي المحاسن ، بل إن المقارنة بين الأحداث والتراجم التي ذكرها ابن حجر في هذا الكتاب وبين مثيلاتها عند هؤلاء المؤرخين الثلاثة على وجه الخصوص تجعل لصاحبنا الصدارة في المجال التاريخي ، نقول هذا بعد نظر طويل في مؤلفات ذلك العصر على الإجمال ، ثم إن هناك مصدراً آخر لم يتوفر لهؤلاء المؤرخين الآخرين - وإن توفّر فتوفّر مجزوء - وهو ذو شقين : أحدهما تولّى ابن حجر بعض المناصب الكبرى في الدولة المملوكية ممّن شاركه في بعضها غيره ، أو مناصب لم يشركه فيها سواه كالإفتاء ودار العدل وقضاء القضاة الشافعية .

أما الشق الآخر فهو معرفته الشخصية لبعض السلاطين معرفة ترقى إلى حد الصداقة والمجالسة واستشارتهم إياه فيما بهم عليهم وأغلق من أمور السياسة ذات الصلة بالشرع ، حتى لقد أخذ بعض الأخبار عنهم نسباً كل خبر لمصدره ، وبذلك توفرت له المادة التاريخية إلى جانب الصنعة التاريخية التي هيأتها لها دراساته العميقة للأحاديث الشريفة ورجالاتها .

* * *

ولقد كانت النية في مبدأ الأمر الاعتماد في نشر هذا الكتاب على النسخة التي كتبها ابن حجر بخط يده والمحفظة بمكتبة الظاهرية بدمشق ، ولم أكتف بذلك بل رجعت إلى سبع نسخ أخرى ، وهذا بيانها كلها ورموزها المستعملة في حواشي هذه النشرة :

ط : نسخة بخط المؤلف في المكتبة الظاهرية بدمشق تحت رقم ٢٤١ تاريخ .

ز : نسخة بمكتبة الجامع الأزهر بالقاهرة رقم ٧١٠ تاريخ .

ل : نسخة بالمتحف البريطاني بلندن رقم 7321 Add.

ك : نسخة بمكتبة أحمد الثالث بتركيا رقم ١/٢٩٤٢

ف : نسخة بالمكتبة الأهلية ببغداد رقم 1601.

هـ : نسخة في السعيدية بحيدر آباد ، بالهند ، رقم ٩٤ تاريخ .

ش : نسخة المدينة المنورة ، رقم ٥٢٣ مدينة .

ع : نسخة خزائنية بصنعاء ، على فيلم بدار الكتب المصرية ،

وربما قيل إنه كان يمكن الاكتفاء بالنسخة التي كتبها ابن حجر ذاته بخط يده ، وهي نسخة الظاهرية (ظ.) ، لكن تبين لي أنها لاتعدو أن تكون «مسودة» أولى كتبها لنفسه ، هذا بالإضافة إلى الإشارات القلمية التي دونها ابن حجر مما يشير إلى ذلك ، وأذكر على سبيل المثال أنه في ترجمة رقم ٤ في وفيات سنة ٧٨٦ هـ كتب «يحول من سنة ٧٨٥» ، وبلاحظ. أيضا في وفيات هذه السنة - كما جاءت في نسخة ظ - أنها لم ترتب أبجديا فترجمة رقم ١ سنة ٧٨٦ جاءت في ظ بعد رقم ١٠ ، وقد لاحظ. هو نفسه ذلك فكتب أمامها «ترتب» مما يثمر منه في يُنشر أنه جعلها مسودةً ، وقد اعترزم - لو أن الوقت أسعفه والعمر مدُّ له - أن يجعلها في نسق كالذي اصطنعه في الدرر الكامنة ، ثم سار على نهجه فيه تلميذه السخاوي في الضوء اللامع من حيث الترتيب الأبجدي في اسم الشخص ثم أبيه ثم جدّه وهكذا دواليك حيث اقتضت الضرورة وألحّت - أن «أرتب» التراجم حسب حروف المعجم حين يُعَوّن هذا الترتيب .

وحين ترجم لشاه شجاع (وهي الترجمة رقم ١٤ لوفيات سنة ٧٨٧ ص ٣٠٦ من هذا الجزء) جاء في ظ : « شاه شجاع صاحب شيراز وبلاد فارس ، كان عالماً فاضلاً محباً للعلماء والعلم ، كتب الخط. الفائق وشارك في العلم » ، ثم أضاف في ورقة منفصلة (ورقة ٦٩ من نسخة ظ) الترجمة الواردة هنا داخل الإنباء رقم ١٤ وذلك مع شيء من التغيير في بعض النسخ الأخرى .

ومما يدلّ على أن نسخة ظ هي المسودة أنه كتب في ورقة ١٦٧ منها في الصלב : «شرف الدين الأنطالي باللام ، كان من الصوفية البسطامية» ، ثم عاد في هامش نفس الصفحة فكتب الترجمة الواردة في المتن فيما بعد رقم ٢٨ ص ٣٠٠ هنا باسم «محمود» وهي لنفس المترجم .

وفي أثناء دراستي للدكتوراه في جامعة لندن ، أشار على الأستاذ الدكتور برنارد لويس أن ألحق الرسالة الأصلية بنشر قسم من «إنباء الغمر» ، وشاركه هذه الإشارة الأستاذان سير هاملتون جب ، وهارولد بووين ثم زكّي هذه الفكرة المستشرق الإيطالي الأستاذ ديلافيد ، الذي بذل لي من وقته وجهده الكثير أثناء وجودي برومة فيسّر لي مكتبته الخاصة ومكتبة الفاتيكان ، فاستجبتُ لهم جميعاً مرحباً ، وأقبلتُ على العمل إقبالاً ظلّ ملازماً منذ سنة ١٩٥٤ حتى الآن ، فوثّق معرفتي بابن حجر وحياته وأسلوبه وأقام وشيعة صداقةً عندي نحوه ، ولقد وجدتنى مضطراً - في لندن - إلى استعمال نسخة ظ فتفضلت جامعة عين شمس فبعثتُ إلى مشكورةً بصورةً كاملة منها هي اليوم في مكتبة كلية الآداب بها ، ولقد

أُتيح لى أثناء دراستى بالخارج أن أقارن محتويات نسخة ظ بكثير من نسخ المخطوطة فى رومة (مكتبة الفاتيكان) والمتحف البريطانى بلندن والمكتبة الأهلية بباريس وأرانى مدينا بالفضل الكبير لأصدقائى فى هذه الدور وللعاملين بها فقد يسّروا لى سبيل الاطلاع على ما أريد ، ولم يبخلوا علىّ بما أردت وفوق ما كنت أريد دون من ولا ضجر . كذلك أشكر أعضاء لجنة إحياء التراث الإسلامى بالمجلس الأعلى للشئون الإسلامية فتمد رأوا أن يكون « الإنباء » من بين ما تقوم اللجنة بنشره .

ولقد نسختُ نسخة ظ ، ثم قارنتُها بالنسخ الأخرى التى هيأ لى الوقت توفرها فى مصر أو الخارج وجعلت المقدمة فى النشر لما كتبه ابن حجر بخط يده إلّا حيث اختلف الرسم فىوضع الصحيح مع الإشارة فى الهامش إلى ما بين النسخ من اختلاف ، وضبطت الأعلام بقدر ما وسعنى الجهد ، كما رجعت فى المادة التاريخية التى تضمنتها أخبار « الإنباء » إلى حوليات ذلك العصر من مشاهدى العيان لهذه الحقبة ممن لازالت كتب معظمهم رهن الخطيات فى دور الكتب فى القاهرة والاسكندرية ولندن وكمبردج وأكسفورد وباريس ورومة والفاتيكان وليدن وتركيا وكذلك أفلام قسم المخطوطات بالجامعة العربية كما رجعت أيضا إلى الأبحاث الحديثة التى وضعها بعض المستشرقين والمؤرخين من الكتّابين بالعربية أو الانجليزية أو الفرنسية وأشارت إلى ذلك كله فى الحواشى فى موضعه الخاص به .

أما الأعلام الذين ورد ذكرهم فى ثنايا « إنباء الغمر » من الفقهاء والعلماء والمحدثين والرواة ورجال السياسة والدين والعامّة فقد رجعت إلى تراجمهم فى الكتب المطبوعة والخطيات ، متجنباً الإطالة ومكتفياً بإحالة القارئ إلى تلك المظان - إلّا حيث يتطلب النص شرحاً وإيضاحاً ، والعلم تحقيقاً - واتبعت ذلك الطريق حتى لا تتخم الحواشى وتطغى على المتن ، وسيجد القارئ فى نهاية هذا الجزء - وهو أول أجزاء تكمل بها الإنباء مطبوعة - ثبتاً بالمصادر والمراجع التى استشرت فى إخراج هذه النسخة أما الفهارس التفصيلية لأسماء الأعلام والأماكن والوظائف والكتب الواردة فقد أرجأتها إلى نهاية الجزء الثالث من هذا التقسيم للإنباء . وبعد فأرجو أن أكون قد وفقت فى إخراج هذه النسخة ، وما التوفيق إلا من الله ، عليه توكلت وإليه أنيب .

نسخ المخطوطة

التي روجعت في تحقيق هذا الجزء

ظ : الظاهرية بدمشق وهي مسودة المؤلف وبخط يده رقم ٢٤١ تاريخ .

ع : نسخة خزائية بصنعاء ، على فيلم بدار الكتب المصرية .

ز : النسخة الأزهرية (مكتبة الجامع الأزهر برقم ٧١٠ تاريخ) .

ك : نسخة بمكتبة أحمد الثالث بتركيا ٢٩٤٢ - ١

ل : نسخة المتحف البريطاني بلندن رقم Add. 7321 .

ف : نسخة بالمكتبة الأهلية بباريس رقم ١٦٠١ .

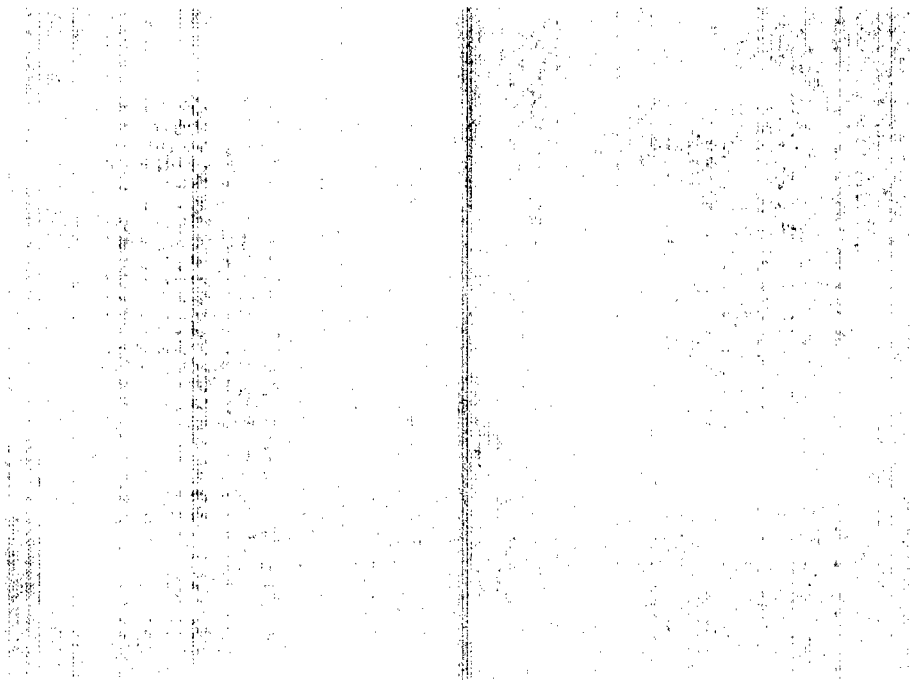
هـ : نسخة بالسعيدية . حيدر آباد الهند ، رقم ٩٤ تاويخ .

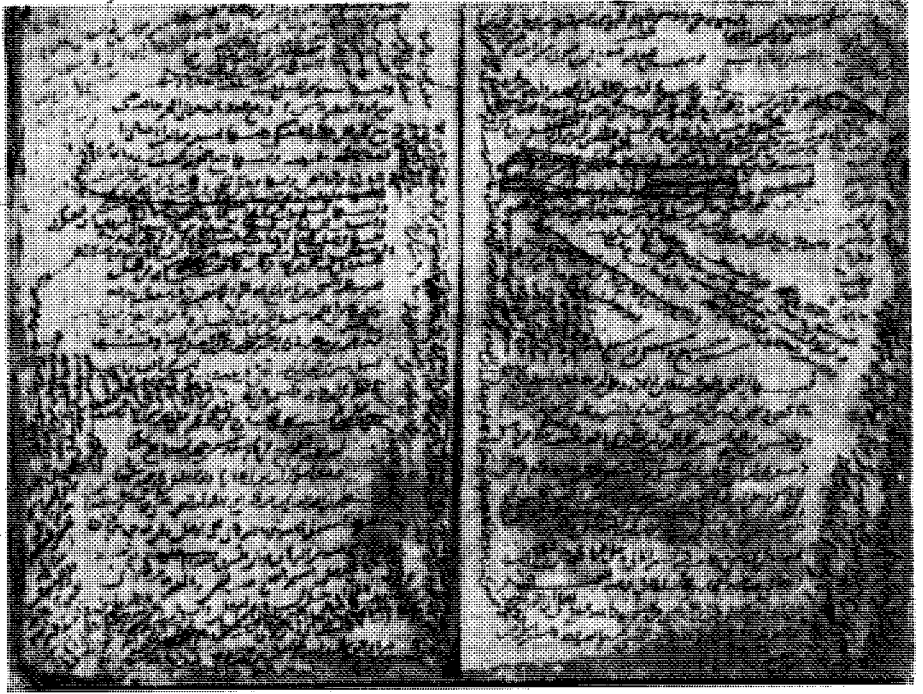
ش : نسخة بالمدينة المنورة ، رقم ٥٢٣ مدينة .



- ١ -

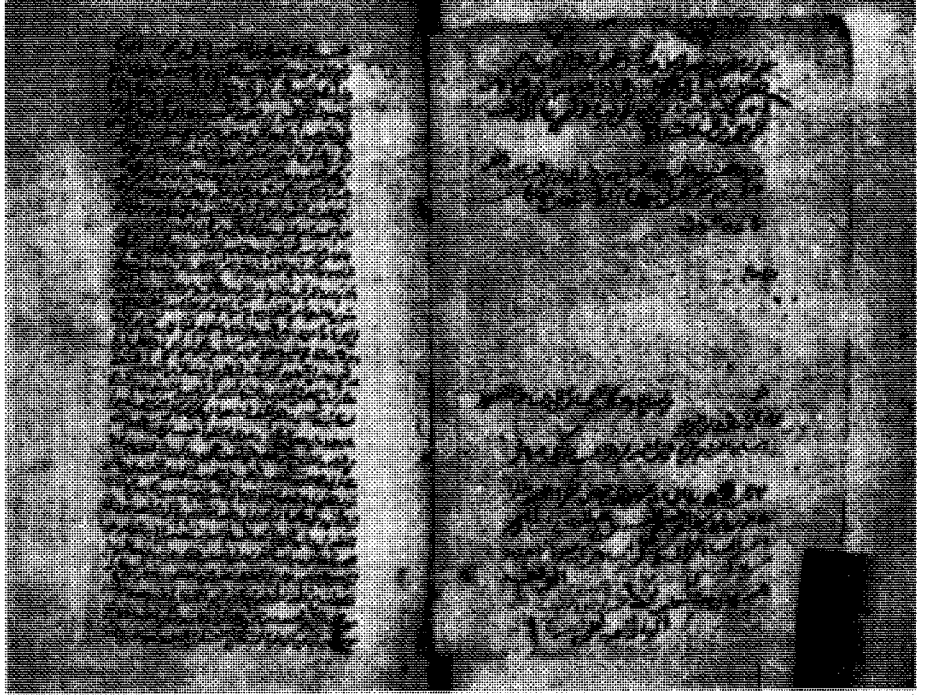
بداية مخطوطة الانباء بالظاهرية بدمشق ، وهي بخط ابن حجر نفسه
وفي أزمنة مختلفة (انظر المتن ، ص ٣ - ١١)





- ٢ -

(من مخطوطة الظاهرية بخط ابن حجر ، انظر المتن صفحة ١٠٢ - ١٠٦)



- ٣ -

(مثالان من خط ابن حجر و ابراهيم البتماعى ، انظر مقدمة المتن)